Al-imad Journal of Humanities and Applied Sciences (AJHAS)
مجلة العماد للعلوم الإنسانية والتطبيقية

ISSN: 3106-0323
Volume 1 – Issue 2 – 2025
Pages 98-106

The Impact of Trade Routes on Shaping Hybrid Identity and Social Cohesion in West Africa (11th-14th Centuries AD)

Faisel Mohammed Mohammed Ogrban *
Department of Classroom Teachers, Faculty of Education, Gharyan, Gharyan University
*Corresponding author: faiselogrban@gmail.com

أثر المسارات التجارية في صياغة الهوية الهجينة والتماسك الاجتماعي بالسودان الغربي (11-14م)

فيصل محمد محمد العقربان *
قسم معلم فصل، كلية التربية غريان، جامعة غريان

Received: 20-10-2025; Accepted: 12-12-2025; Published: 30-12-2025

Abstract:
This study investigates the structural and civilizational role played by Trans-Saharan trade networks in shaping major social transformations and fostering social cohesion in West Africa between the 5th and 8th AH / 11th and 14th AD centuries. The central research problem lies in analyzing how these commercial networks evolved from mere logistical routes for exchanging material commodities—such as gold and salt—into active "channels of acculturation" and social tools for merging diverse ethnic components within this vast geographical region. By employing an analytical historical method based on classical travelers' accounts, combined with socio-historical and anthropological approaches, the study highlights the spatial and social spheres generated by this commercial movement. The study finds that trade created what can be termed a "hybrid space" or "culture of the road," a civilizational state that transcended narrow tribal identities in favor of a shared Islamic-African identity. The paper reveals that this cohesion was achieved through three primary structural mechanisms: First, strategic intermarriage between arriving Northern traders (Arabs and Berbers) and local populations (Soninke and Mandingo), which produced a middle social class that dissolved ethnic boundaries. Second, the adoption of Maliki jurisprudence as a governing legal framework for transactions, providing a "contractual constitution" that ensured the rights of both foreigners and locals alike, thereby reducing tribal conflicts. Third, the pivotal role played by the "Wangara" elite and merchant-scholars as cultural mediators who transmitted and integrated Islamic ethical values into the local social fabric. The study concludes that the social cohesion resulting from these networks was not a mere side effect but rather the fundamental pillar and solid foundation for the political power and civilizational stability of the Ghana and Mali Empires. Consequently, the research demonstrates that medieval West Africa provided a unique historical model of peaceful coexistence and integration based on shared economic interests and legislative unity.

Keywords: Trans-Saharan Trade, West Africa, Social Cohesion, Maliki Jurisprudence, Wangara, Acculturation.

الملخص
تتقصى هذه الدراسة الدور البنيوي والحضاري الذي لعبته شبكات التجارة العابرة للصحراء الكبرى في صياغة التحولات الاجتماعية الكبرى وتحقيق التماسك المجتمعي في منطقة السودان الغربي، وذلك خلال

 Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الفترة الزمانية الواقعة ما بين القرنين الخامس والثامن الهجريين (11-14م). تكمن إشكالية البحث المركزية في تحليل الكيفية التي استطاعت بها هذه الشبكات التجارية التحول من مجرد مسارات لوجستية لتبادل السلع المادية كالذهب والملح، إلى "قنوات للمثاقفة" فاعلة وأدوات اجتماعية لصهر المكونات الإثنية المتباينة التي تعايشت في تلك المنطقة الجغرافية الشاسعة. وباعتماد المنهج التاريخي التحليلي المرتكز على نصوص الرحالة الكلاسيكيين، ومزاوجته بمقاربات سوسيولوجيا التاريخ والأنثروبولوجيا، تسلط الدراسة الضوء على الفضاءات المكانية والاجتماعية التي أفرزتها هذه الحركة التجارية. وقد توصلت الدراسة إلى أن التجارة خلقت ما يمكن تسميته بـ "الفضاء الهجين" أو "ثقافة الطريق"، وهي حالة حضارية تجاوزت الهويات القبلية الضيقة لصالح هوية إسلامية-أفريقية مشتركة. وتكشف الورقة أن هذا التماسك تحقق عبر ثلاث آليات بنيوية رئيسية: أولها المصاهرة الاستراتيجية التي جرت بين تجار الشمال الوافدين (العرب والأمازيغ) والسكان المحليين (السوننكي والماندينغو)، مما أنتج طبقة اجتماعية وسيطة أذابت الفوارق العرقية. ثانيها، تبني الفقه المالكي كمرجعية قانونية ناظمة للمعاملات، حيث وفر "دستوراً تعاقدياً" ضمن حقوق الغرباء والمحليين على حد سواء، وقلل من حدة النزاعات القبلية. ثالثها، الدور المحوري الذي لعبته نخبة "الوانغارا" والعلماء التجار كوسطاء ثقافيين نقلوا القيم الأخلاقية الإسلامية ودمجوها في النسيج المحلي. خلصت الدراسة في نتائجها النهائية إلى أن التماسك الاجتماعي الناتج عن هذه الشبكات لم يكن أثراً جانبياً، بل كان الركيزة الأساسية والقاعدة الصلبة التي قامت عليها القوة السياسية والاستقرار الحضاري لإمبراطوريتي غانا ومالي. وبذلك، يثبت البحث أن منطقة السودان الغربي في العصر الوسيط قدمت نموذجاً تاريخياً فريداً للتعايش السلمي والاندماج القائم على المصالح الاقتصادية المشتركة والوحدة التشريعية.

الكلمات المفتاحية: التجارة العابرة للصحراء، السودان الغربي، التماسك الاجتماعي، الفقه المالكي، الوانغارا، المثاقفة.

المقدمة:

1. جيوبوليتيك الصحراء: من العزلة الجغرافية إلى الامتداد الحضاري

لطالما نُظر إلى الصحراء الكبرى في الدراسات المركزية القديمة بوصفها فضاءً أصمّ، أو عائقاً طبيعياً يحول دون التفاعل البشري بين حوض البحر الأبيض المتوسط وجنوب الصحراء. إلا أن القراءة المنهجية المعاصرة للتاريخ الإسلامي ما بين القرنين الخامس والثامن الهجريين (11-14م) تقلب هذه الرؤية رأساً على عقب، حيث تحولت هذه الجغرافيا الشاسعة من "عائق" إلى "جسر" حيوي، أو ما يمكن تسميته بـ "البحر الجاف" الذي تتلاطم فيه أمواج القوافل (McDougall, 1990). إن الانتقال من عصر "مملكة غانا" إلى عصر "إمبراطورية مالي" يمثل ثورة بنيوية في مفهوم الدولة والاجتماع؛ فبينما كانت غانا تعتمد على التحكم في منابع الذهب، صعدت مالي لتبني نموذجاً يقوم على "إدارة الشبكات" وتسهيل حركة التدفقات البشرية والمادية (Gomez, 2018).

إن هذا الفضاء الصحراوي لم يكن خالياً، بل كان مأهولاً بـ "ثقافة الطريق". هذه الثقافة فرضت على المجموعات السكانية المختلفة نوعاً من التكيف البنيوي؛ حيث لم تعد القبيلة وحدة منغلقة على ذاتها، بل أصبحت جزءاً من سلسلة إمداد دولية. ويؤكد بوفيل (Bovill, 1995) أن الذهب السوداني لم يكن مجرد سلعة، بل كان القوة المحركة التي أعادت صياغة مراكز القوى في العالم الإسلامي، وجذبت الأنظار نحو "بلاد التكرور" كأرض للفرص والاندماج. هذا التحول الجيوسياسي خلق حاجة ملحة لنظام اجتماعي يضمن استدامة هذه التدفقات، وهو ما مهد لظهور آليات التماسك التي يتناولها هذا البحث.

2. سوسيولوجيا القافلة: تشريح المؤسسة الاجتماعية المتنقلة

إن البحث العميق في شبكات التجارة يكشف أن "القافلة" لم تكن مجرد وسيلة نقل لوجستية، بل كانت "مؤسسة اجتماعية متكاملة" (Total Social Institution). كانت القافلة تضم مئات، وأحياناً آلاف الإبل والرجال، وتشكل مجتمعاً مصغراً يضم تجاراً من شمال إفريقيا، وأدلاء من الطوارق، وحراساً من قبائل مختلفة، وفقهاء لضبط المعاملات (Lydon, 2009). هذا الاحتكاك اليومي القسري وسط مخاطر الصحراء لأسابيع طويلة، خلق ما يمكن تسميته بـ "عقد الأمان الصحراوي"؛ وهو تضامن يفرضه الخطر المشترك ويتجاوز الحدود العرقية.

 Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

ويشير ليفزيون (Levtzion, 1973) إلى أن هذا التماسك انتقل من "الطريق" إلى "المدينة". ففي حواضر مثل "أودغشت" و"كومبي صالح"، لم يعد التاجر الأمازيغي أو العربي غريباً، بل أصبح "مواطناً اقتصادياً". إن نشوء "الأحياء المزدوجة" (Dual Towns) كان مرحلة انتقالية ذكية؛ حيث سمحت للمجتمعين (المحلي والوافد) بالتعارف التدريجي دون صدام هويات حاد. ومع مرور الوقت، وبفعل قوانين السوق والمصاهرة، ذابت الأسوار الوهمية بين هذه الأحياء. إن عملية "الاندماج الحضري" هذه لم تكن نتاج قرار سياسي فوقي، بل كانت ضرورة اجتماعية أملاها الرخاء المشترك، مما جعل المدينة السودانية مختبراً حقيقياً للتعددية الثقافية المبكرة (Insoll, 2003).

3. "الإسلام التجاري": وظيفة الدين في صناعة السلم المجتمعي

يمثل الإسلام في السودان الغربي خلال هذه الفترة نموذجاً فريداً لانتشار الدين عبر "القوة الناعمة" المتمثلة في التجارة. لم يأتِ الإسلام في هذه المنطقة محمولاً على أسنّة السيوف، بل كان "ديباجة" للعقود التجارية و"ضمانة" للصدق في المعاملات. لقد ظهر نمط "التاجر الفقيه" (The Merchant-Scholar) الذي يبيع البضاعة وينشر المعرفة في آن واحد، مما جعل الإسلام يبدو في أعين السكان المحليين كـ "منظومة للحداثة والترقي الاجتماعي" (Wright, 2007).

حينما اعتنق قادة القبائل في السودان الغربي الإسلام، لم يكن ذلك مجرد تحول روحي، بل كان انضماماً لـ "نادي تجاري عالمي". الإسلام وفر "اللغة المشتركة" (السيوسيو-قانونية) التي سمحت لتاجر من بلاد الماندينغو بالتعاقد مع تاجر من تلمسان بناءً على مرجعية واحدة هي الفقه المالكي (Lydon, 2009). هذا التوحد المذهبي ألغى مفهوم "الأجنبي" داخل الفضاء الإسلامي، واستبدله بمفهوم "الأخ في الدين والمهنة". ومن هنا، نجد أن "التضامن العضوي" الذي نظّر له ابن خلدون قد تجسد في أبهى صوره في هذه المناطق، حيث حلت "العصبية الدينية-المهنية" محل "العصبية القبلية"، مما وفر شبكة أمان اجتماعي عابرة للقارات (Gomez, 2018).

4. نخبة "الوانغارا" والوساطة الثقافية العابرة للأقاليم

في هذا السياق، برزت جماعات "الوانغارا" كأهم فاعل اجتماعي محلي في السودان الغربي. لم يكن هؤلاء مجرد تجار ذهب، بل كانوا "سفراء ثقافيين" جابوا الغابات والسهول. الوانغارا مثلوا "الإسلام الأفريقي" في أرقى تجلياته؛ حيث استطاعوا بمرونتهم الثقافية التغلغل في مجتمعات لم تكن قد أسلمت بعد، ناشرين قيم الأمان والصدق التجاري (Insoll, 2003).

لقد أدت هذه الشبكة إلى توحيد الرموز الثقافية؛ فأصبحت "العمامة" و"الرداء العربي" و"اللغة العربية" رموزاً للمكانة الاجتماعية الرفيعة والنزاهة، مما حفز المجتمعات المحلية على الاقتداء بهذا النموذج. هذا التقليد الثقافي (Mimesis) أدى إلى نوع من التماسك النفسي والاجتماعي؛ حيث أصبح الجميع يتطلعون إلى هوية حضارية واحدة تجسدت في إمبراطورية مالي. وعندما زار ابن بطوطة المنطقة في القرن الثامن الهجري، لم يجد مجتمعاً ممزقاً، بل وجد أمة تفتخر بالعدل والأمان، حيث ذكر أن "السودان أحرص الناس على الصلاة وحفظ القرآن" (Battutah, 2002)، وهو ما يعكس وصول عملية التماسك الاجتماعي إلى مرحلة النضج الكامل بفضل تداخل الإيمان بالتجارة.

5. أهداف الدراسة ومنهجيتها في استنطاق التاريخ

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تجاوز القراءات التقليدية التي تحصر تاريخ السودان الغربي في "تاريخ الذهب"، لتركز على "تاريخ الإنسان" وتفاعلاته. تتبع الدراسة منهجاً "بين-منهجياً" يجمع بين التحليل التاريخي للنصوص الكلاسيكية (البكري، الإدريسي، ابن بطوطة) وبين المعطيات السوسيولوجية والأنثروبولوجية التي تفسر ظواهر الاندماج والمثاقفة. إن الفرضية المركزية هنا هي أن "شبكات التجارة" كانت هي "العقد الاجتماعي" غير المكتوب الذي منح السودان الغربي استقراره وتماسكه في واحدة من أكثر فترات التاريخ الإسلامي ازدهاراً وعطاءً.

 Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

4. إشكالية البحث وأهدافه

تكمن إشكالية هذا البحث في محاولة فهم الكيفية التي استطاعت بها "المصلحة التجارية" أن تروض "التنافر العرقي". فالسودان الغربي كان يغص بمجموعات إثنية مختلفة (صنهاجة، سوننكي، ماندينغو، فولا، طوارق)، ومع ذلك شهدت هذه الفترة التاريخية استقراراً اجتماعياً نسبياً مكن من قيام إمبراطوريات كبرى. يهدف البحث إلى إثبات فرضية مفادها أن "شبكة التجارة" كانت هي "المؤسسة الوطنية" التي صهرت هذه المكونات، وأن "المدينة الصحراوية" كانت المختبر الذي ولدت فيه الهوية الأفريقية-الإسلامية المشتركة. بناءً على ما تقدم، ومن أجل الإحاطة بأبعاد هذه الظاهرة الجيوسياسية المعقدة، فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة مباحث متكاملة؛ يتقصى الأول منها 'جغرافية المسارات' بوصفها هياكل اجتماعية ومراكز للتلاقي الحضاري، بينما يحلل المبحث الثاني 'آليات التماسك' من خلال فحص دور المصاهرة ونخبة الوانغارا في تذويب الغربة العرقية. وينتقل المبحث الثالث لتدقيق النظر في 'المنظومة القيمية والقانونية' ممثلة في الفقه المالكي ودوره كعقد اجتماعي ناظم، وصولاً إلى المبحث الرابع الذي يستعرض 'أنثروبولوجيا الاستهلاك' وكيفية صناعة الهوية الهجينة عبر الرموز الثقافية الموحدة كالزي واللغة والعملة، لتختتم الدراسة بعرض أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: جغرافية المسارات ومراكز التلاقي الحضاري (تحليل مكاني وسوسيولوجي)

1. هندسة المسارات: الفضاء كشبكة علاقات إنسانية

لم تكن المسارات التجارية العابرة للصحراء مجرد خطوط جغرافية تربط بين نقاط متباعدة، بل كانت "هياكل اجتماعية" معقدة تعكس موازين القوى والتفاهمات القبلية. في الفترة ما بين القرنين الخامس والثامن الهجريين، لم يكن المسار التجاري يُختار بناءً على قصر المسافة فحسب، بل بناءً على **"خارطة الأمان"** ووجود الآبار والواحات التي تسيطر عليها قبائل توفر الحماية مقابل "المكوس" أو الخدمات (Lydon, 2009).

أ- **المحور الغربي (طريق الذهب):** كان يربط سجلماسة في المغرب الأقصى بمدينة أودغشت وكومبي صالح (عاصمة غانا). هذا الطريق كان بمثابة "الأنبوب الوريدي" الذي ضخ الفقه المالكي واللغة العربية إلى عمق السودان الغربي. وقد أدى هذا المحور إلى نشوء علاقة عضوية بين قبائل صنهاجة الأمازيغية وقبائل السوننكي، حيث تحول التنافس الأولي إلى نوع من "التبعية المتبادلة" (Interdependence) لضمان تدفق الذهب شمالاً والملح جنوباً (McDougall, 1990).

ب- **المحور الأوسط والشرقي:** ربط تلمسان والقيروان بحوض النيجر وبحيرة تشاد. هذه المسارات كانت مسؤولة عن نقل "ثقافة العمران" والتقنيات الحرفية، مما أدى إلى تشابه مدهش في التخطيط العمراني بين مدن شمال إفريقيا ومدن السودان الغربي، وهو ما عزز الشعور بالانتماء إلى "فضاء حضاري واحد" (Insoll, 2003).

2. "الموانئ الصحراوية": المدينة كبؤرة للصهر الثقافي

تحولت المحطات التجارية من مجرد نقاط عبور إلى مدن كبرى لُقبت بـ "موانئ الصحراء". هذه المدن لعبت دوراً حاسماً في تعزيز التماسك الاجتماعي عبر آلية **"التمدن القسري"** للتجار والقبائل الرحل:

أ- **كومبي صالح وأودغشت (مرحلة التعايش المزدوج):** في القرن الخامس الهجري، كانت "كومبي صالح" تمثل نموذجاً فريداً للتماسك الحذر. يصف البكري المدينة بأنها مقسومة إلى شطرين؛ شطر المسلمين الذي يضم الجوامع والفقهاء والتجار، وشطر "المدينة الملكية". هذا التقسيم لم يكن انعزالاً بقدر ما كان "تنظيماً وظيفياً" سمح بمرور الأفكار والقيم الإسلامية إلى البلاط الملكي والطبقة الحاكمة في غانا دون صدام ثقافي عنيف (Levtzion, 1973).

ب- **تمبكتو وجني (مرحلة الاندماج الكامل):** مع حلول القرن الثامن الهجري (عصر إمبراطورية مالي)، تلاشت الفوارق المكانية بين أحياء الوافدين والمحليين. تحولت تمبكتو إلى مدينة "كوزموبوليتانية" (Cosmopolitan) بكل معنى الكلمة، حيث تداخلت المساجد بالأسواق، وأصبحت بيوت العلماء الأمازيغ تلاصق بيوت التجار الماندينغو (Gomez, 2018). هذا التحول

 Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

من "المدينة المزدوجة" إلى "المدينة المندمجة" هو الدليل المادي الأقوى على نجاح شبكات التجارة في تحقيق التماسك الاجتماعي.

3. الأثر البيئي والديموغرافي: الهجرة والاستيطان

أدت "الجاذبية الاقتصادية" للمسارات التجارية إلى حركات هجرة واسعة النطاق من الشمال نحو الجنوب (السودان الغربي). هذه الهجرات لم تكن عشوائية، بل كانت هجرات "مهنية" استقرت في الأراضي الخصبة على ضفاف نهر النيجر.

أ- **تغير النمط المعيشي:** أدى استقرار تجار الشمال في السودان إلى نقل تقنيات الري والزراعة، مما خلق نوعاً من الاستقرار الغذائي الذي قلل من النزاعات على الموارد (Bovill, 1995).

ب- **خلق الهويات الهجينة:** بفعل طول البقاء، ظهر جيل جديد من "الحضريين" الذين لا يعرفون موطناً غير السودان الغربي ولكنهم يحتفظون بروابط تجارية وثقافية مع الشمال. هذا الجيل كان "اللاصق الاجتماعي" الذي منع انهيار العلاقات في فترات التوتر السياسي بين الممالك (Wright, 2007).

المبحث الثاني: آليات التماسك والاندماج الاجتماعي (تحليل سوسيولوجي وتاريخي)

لم تكن شبكات التجارة مجرد قنوات لمرور الذهب والملح، بل كانت "مفاعلات اجتماعية" أذابت الفوارق العرقية والمكانية. يحلل هذا المبحث ثلاث آليات جوهرية نقلت المجتمع من حالة "التعايش النفعي" إلى حالة "التماسك العضوي": المصاهرة الديموغرافية، النخبة العلمية-التجارية، والشبكات العرقية المتجاوزة للحدود (الوانغارا).

1. المصاهرة وعصبية "النسب الصهر": من التاجر الغريب إلى الصهر المقيم

كانت الرحلة التجارية عبر الصحراء تستغرق أشهراً، وغالباً ما كان التجار يضطرون للإقامة في السودان الغربي لفترات طويلة بانتظار تبدل الفصول أو تجميع البضائع. هذا "الاستقرار المؤقت" تحول تدريجياً إلى "استيطان دائم" مدفوعاً بآلية المصاهرة.

أ- **تذويب الغربة:** لجأ تجار الشمال (الأمازيغ والعرب) إلى التزوج من بنات الأسر الحاكمة أو الأسر التجارية المحلية في السودان الغربي (مثل السوننكي والماندينغو). لم يكن هذا الزواج مجرد رابطة عاطفية، بل كان "تحالفاً استراتيجياً" يوفر للتاجر حماية اجتماعية (Social Protection) داخل القبيلة المحلية، ويوفر للأسرة المحلية وصولاً مباشراً لشبكات التجارة الدولية (Levtzion, 1973).

ب- **نشوء الطبقة الهجينة:** أفرزت هذه المصاهرات جيلاً من "المولدين" الذين امتلكوا ولاءات مزدوجة؛ فهم يحملون ملامح السكان المحليين ولغتهم، لكنهم يتبنون دين وثقافة وآليات تجارة آبائهم الوافدين. هذا الجيل لعب دور "الوسيط التاريخي" الذي منع حدوث صدامات عرقية كبرى، حيث كان يمثل "النموذج الاندماجي" الناجح (Gomez, 2018).

2. "الفقيه التاجر": هندسة الإجماع الاجتماعي عبر المعرفة والثروة

في التاريخ الإسلامي للسودان الغربي، برزت ظاهرة فريدة هي تلازم "العلم والتجارة". لم يكن الفقيه يعيش بمعزل عن السوق، بل كان السوق هو ممول العلم، والعلم هو ضابط السوق.

أ- **العلماء كصمامات أمان:** شكل العلماء طبقة "أرستقراطية علمية" حظيت باحترام السلاطين والعامة على حد سواء. وبسبب انخراطهم في التجارة، امتلكوا استقلالاً مادياً مكنهم من ممارسة دور "المراقب الاجتماعي" و"المصلح" بين المجموعات العرقية المتنافسة (Insoll, 2003).

ب- **توحيد الرموز الثقافية:** عبر هذه النخبة، انتشرت اللغة العربية كـ "لغة للمكانة" (Prestige Language) وكأداة لإدارة العقود. هذا التوحيد اللغوي والقيمي خلق شعوراً بالانتماء لكيان أوسع من القبيلة، وهو "الأمة الإسلامية"، مما جعل التماسك الاجتماعي يتجاوز الجغرافيا الضيقة ليصل إلى آفاق عالمية (Lydon, 2009).

3. شبكة "الوانغارا" (Wangara): عبقرية الوساطة المحلية

 Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

إذا كان تجار الشمال قد جلبوا الإسلام والتجارة العابرة للصحراء، فإن جماعات "الوانغارا" هم من قاموا بـ "أفرقة" هذه الشبكات وتوصيلها إلى أقاصي الغابات الاستوائية.

أ- **الاحتراف العرقي العابر للحدود:** الوانغارا (وهم من فروع الماندينغو) تخصصوا في تجارة الذهب ونشر الإسلام. تميزت هذه الجماعة بقدرتها على التغلغل في مجتمعات "وثنية" دون استخدام القوة، معتمدين على سمات "النزاهة" و"الأمانة" المرتبطة بهويتهم التجارية الإسلامية (Wright, 2007).

ب- **خلق "الفضاء السلمي":** بفضل شبكة الوانغارا، تحولت مناطق شاسعة في غرب إفريقيا إلى فضاء آمن للتجارة والتعايش. لقد خلقوا "نظاماً موازياً" للدولة؛ فبينما قد تنهار الممالك أو تنشب الحروب بين السلاطين، ظلت "شبكة الوانغارا" تعمل كخيوط حريرية تربط المجتمعات ببعضها، مما حافظ على الحد الأدنى من التماسك الاجتماعي حتى في أحلك الظروف السياسية.

المبحث الثالث: المنظومة القيمية والقانونية وأثرها في التماسك

لم تكن التجارة العابرة للصحراء مجرد عملية ميكانيكية لتبادل السلع، بل كانت محملة بحمولة قيمية وتشريعية أعادت تعريف "العدالة" و"الانتماء" في السودان الغربي. في هذه البيئة، تحول الإسلام من "دين وافد" إلى "منظومة حياة" (Way of Life) وفرت الإطار القانوني والأخلاقي اللازم لدمج الأعراق المتباينة.

1. الفقه المالكي كـ "دستور" للتجارة والتعايش الاجتماعي

في ظل غياب القوانين الوضعية المركزية العابرة للحدود، لعب الفقه المالكي دور "القانون الدولي الخاص" الذي ينظم العلاقات بين الغرباء والمحليين.

أ- **سيادة العقد على العصبية:** قدم الفقه الإسلامي مفهوم "العقد" بوصفه التزاماً أخلاقياً ودينياً يتجاوز الانتماء القبلي. كان التاجر "السوننكي" والتاجر "المغربي" يتحاكمان إلى نفس المرجعية الفقهية في العقود والديون والوكالات، مما خلق حالة من "المساواة القانونية" التي قللت من حدة النزاعات العرقية (Lydon, 2009).

ب- **مؤسسة القضاء (قاضي الجماعة):** شهدت المدن السودانية نشوء منصب القاضي الذي كان غالباً ما يتمتع باستقلالية عالية عن السلطة السياسية. كان القاضي في تمبكتو أو جني يفصل في المواريث والتركات والمعاملات المالية المعقدة، مما وفر شعوراً بـ **"الأمان القضائي"** الذي شجع التجار على الاستقرار الدائم وبناء أسر وتنمية ثرواتهم داخل هذه المجتمعات (Gomez, 2018).

2. مؤسسة الوقف والزوايا: هندسة التضامن العابر للطبقات

ساهمت الثروة الهائلة المتدفقة من تجارة الذهب في تمويل بنية تحتية اجتماعية (Social Infrastructure) قائمة على الوقف الإسلامي، وهو ما كان له أثر بعيد المدى في التماسك الاجتماعي:

أ- **الزاوية كمركز إيواء ودراسة:** لم تكن الزوايا والكتاتيب مجرد أماكن للعبادة، بل كانت "بيوتاً للضيافة" (Hospices) تستقبل القوافل والغرباء والطلاب من كل الأعراق. هذا الاشتراك في الطعام والسكن والمعرفة أذاب الفوارق الطبقية والعرقية، حيث كان ابن التاجر الثري يجلس بجانب ابن الزارع الفقير لتعلم القرآن واللغة العربية (Insoll, 2003).

ب- **إعادة توزيع الثروة:** من خلال الزكاة والصدقات والأوقاف التي كان يخصصها كبار التجار، تم خلق "شبكة أمان اجتماعي" خففت من حدة الفوارق الاقتصادية، مما منع نشوب ثورات اجتماعية أو اضطرابات عرقية ناتجة عن التفاوت الطبقي الحاد (Levtzion, 1973).

3. ثقافة "الأمان" وسلوكيات الاستقامة (النموذج المالي)

بلغ التماسك الاجتماعي ذروته في إمبراطورية مالي (القرن 8 هـ / 14 م)، حيث تحولت القيم الإسلامية إلى "سلوك جمعي" مبهر للرحالة الغرباء.

أ- **شهادة ابن بطوطة التحليلية:** عند تحليل نص ابن بطوطة، نجد أنه يركز على "انعدام الظلم" و"الأمن الشامل". يذكر أن المسافر لا يخشى سارقاً ولا غاصباً، وأن السكان يحرصون على أداء

 Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الأمانات (Battutah, 2002). هذا "الأمان السلوكي" هو الثمرة النهائية لشبكات التجارة التي علمت الناس أن "الاستقامة الاقتصادية" هي الضامن الوحيد للازدهار المستمر.

ب- **التحول من "الغزو" إلى "الإنتاج":** بفضل انخراط المجتمعات في التجارة وتبنيها للقيم الإسلامية، تراجعت ثقافة "الغزو القبلية" لصالح ثقافة "الإنتاج والتبادل". أصبح التماسك الاجتماعي قائماً على "المصلحة في السلم" بدلاً من "الغنيمة في الحرب"، وهو ما يفسر استمرار إمبراطورية مالي لقرون كقوة إقليمية مستقرة (Bovill, 1995).

المبحث الرابع: أنثروبولوجيا الاستهلاك والرموز الثقافية المشتركة

لا يمكن اختزال أثر شبكات التجارة العابرة للصحراء في الجوانب المادية أو التراكم المالي البحت، بل إن أعمق آثارها تجلى في "أنثروبولوجيا الاستهلاك"؛ وهي الكيفية التي تحولت بها السلع المتبادلة، واللغة الوافدة، والأنماط المعيشية إلى "رموز ثقافية" صهرت التباينات الإثنية في بوتقة هوية حضارية واحدة تجاوزت الانتماءات الضيقة (Insoll, 2003). إن هذا المبحث يحلل كيف ساهم "النمط الاستهلاكي المشترك" في خلق حالة من التجانس الاجتماعي التي مهدت للاستقرار السياسي في السودان الغربي.

1. اللغة العربية: من لغة الشعائر إلى "لغة المكانة" (Prestige Language) والتعاقد

لم تعد اللغة العربية في السودان الغربي مجرد لغة نصية محصورة في الزوايا والمساجد، بل تطورت لتصبح "لغة تواصل مشتركة" (Lingua Franca) مكنت أعراقاً متباينة كالسوننكي والماندينغو والأمازيغ من بناء فضاء تداولي موحد (القاسمي، 2005).

أ- **اللغة كأداة تعاقدية وسوسيولوجية:** في ظل غياب لغة محلية موحدة مكتوبة، وفرت العربية نظاماً قانونياً لتوثيق "العقود والديوان". هذا التوثيق خلق ما يمكن تسميته بـ "الثقة اللغوية" بين التاجر الغريب والمحلي؛ فالعقد المكتوب بالعربية أصبح مرجعية تتجاوز الأعراف القبلية المتغيرة، مما عزز من التماسك المبني على "الأمان القانوني".

ب- **رأس المال الرمزي والارتقاء الاجتماعي:** ارتبط إتقان العربية بالارتقاء في الهرم الطبقي. فالفرد الذي يتحدث العربية كان يحوز "رأس مال رمزي" يضعه ضمن النخبة الحضرية المثقفة (Urban Elite)، مما دفع السكان المحليين لتبنيها ليس فقط بدافع ديني، بل كأداة للاندماج في "الفضاء العام" للمدينة التجارية، وهو ما يفسر ذوبان الفوارق بين "الأجانب" و"السكان الأصليين" (Gomez, 2018).

2. الهوية البصرية الموحدة: سيميائية الزي والعمارة

ساهمت شبكات التجارة في نشر "نمط جمالي" موحد عمل كلاصق اجتماعي قلل من حدة الاختلافات العرقية الظاهرة:

أ- **سيميائية الزي (The Semiotics of Dress):** انتشر استخدام "العمامة" والفساتين الواسعة (كالقفطان والدراعة) كرموز للانتماء لطبقة "التجار المسلمين". هذا الزي الموحد لعب دوراً حاسماً في "إخفاء" الأصول الإثنية؛ فبمجرد ارتداء الشخص لهذا الزي، فإنه يعلن انتمائه لـ "أمة التجارة والعلم" العابرة للحدود، ويتحلل من "الوشوم القبلية" التي قد تثير النزاعات، مما خلق حالة من السلم البصري في الأسواق والحواضر (Bovill, 1995).

ب- **الفضاء المعماري المشترك:** أدى انتشار النمط العمراني السوداني-المغربي (عمارة الطوب اللبن والمنارات الهرمية) في تمبكتو وجني إلى خلق "بيئة سيكولوجية" موحدة. عندما يتشارك التاجر الوافد والمزارع المحلي نفس الفراغ المعماري في المسجد أو السوق، فإن ذلك يعزز لديهم الشعور بـ "المواطنة المكانية"، وهو ما ذكره ليفيتزيون (Levtzion, 1973) عند وصفه لدور العمارة في دمج المجتمعات المحلية ضمن الثقافة الإسلامية العابرة للصحراء.

3. الذهب والملح: "تسييل العصبية" وإعادة صياغة مراكز القوة

أعاد تدفق السلع الاستراتيجية (الذهب والملح) صياغة بنية المجتمع السوداني الغربي من "مجتمعات قرابة" إلى "مجتمعات تعاقد":

 Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

أ- **تسييل العصبية القبلية:** وفقاً للمنظور الخلدوني، تعتمد القوة عادة على "العصبية" (الدم والنسب). إلا أن التجارة العابرة للصحراء أدت إلى "تسييل" هذه العصبية؛ حيث برزت قوة جديدة قائمة على "المكانة التجارية والمالية". هذا التحول سمح بظهور طبقة اجتماعية وسطى تتكون من أفراد من أصول إثنية متباينة تجمعهم "المصلحة الاقتصادية" بدلاً من "وحدة الدم"، مما جعل المجتمع أكثر مرونة وأقل عرضة للصدامات العرقية (Gomez, 2018).

ب- **الذهب كعقد اجتماعي:** استخدام الذهب والودع كمعايير موحدة للقيمة لم يكن إجراءً اقتصادياً فحسب، بل كان "عقداً اجتماعياً" غير مكتوب أجبر الجميع على الخضوع لقوانين سوق دولية موحدة. إن القبول بعملة واحدة يعني القبول بمنظومة قيمية واحدة، وهو ما رسخ مفهوم "التعايش النفعي" الذي كان الركيزة الأساسية لاستقرار إمبراطوريتي غانا ومالي (Levtzion & Hopkins, 2000).

الخاتمة والنتائج

خلصت هذه الدراسة في تقصيها لأثر شبكات التجارة العابرة للصحراء على التماسك الاجتماعي في السودان الغربي (5-8هـ / 11-14م) إلى مجموعة من النتائج الجوهرية التي تؤكد أن البعد الاقتصادي لم يكن إلا مدخلاً لتحولات بنيوية سوسيولوجية وأثرية عميقة، ويمكن إيجاز أهم النتائج فيما يلي:

1. **التحول من "المساحة" إلى "المجال":** أثبتت الدراسة أن المسارات التجارية حولت الصحراء الكبرى من عائق جغرافي ومساحة فاصلة إلى "مجال حيوي" وجسر للتواصل، مما خلق نوعاً من "المواطنة العابرة للحدود" التي أذابت العزلة الإثنية بين سكان الواحات وشعوب ضفاف النيجر.
2. **المصاهرة كآلية صهر اجتماعي:** لم تكن الزيجات بين تجار الشمال والسكان المحليين مجرد علاقات اجتماعية عابرة، بل كانت استراتيجية "توطين" ثقافي أنتجت جيلاً هجيناً لعب دور الوسيط التاريخي، مما منع حدوث صدامات الهوية وحافظ على السلم المجتمعي لفترات طويلة.
3. **الفقه المالكي كمرجعية تعاقدية:** كشف البحث أن تبني الفقه المالكي وفر "دستوراً قانونياً" موحداً تجاوز الأعراف القبلية المتباينة؛ مما خلق بيئة آمنة للغرباء والمحليين على حد سواء، وجعل من "العدالة القضائية" ركيزة أساسية للتماسك في ظل تنوع عرقي هائل.
4. **اللغة والزي كرموز للاندماج:** بيّن المبحث الرابع أن تبني اللغة العربية كـ "لغة مكانة" وانتشار النمط العمراني والزي الموحد ساهم في خلق "هوية بصرية" مشتركة، مما حوّل الفرد من كونه "عضواً في قبيلة" إلى "عنصر في فضاء حضاري عالمي" يتجاوز الجغرافيا والنسب.
5. **الاستقرار السياسي نتاج للتماسك الاجتماعي:** توصلت الدراسة إلى أن قوة واستمرارية إمبراطوريتي غانا ومالي لم تكن قائمة على القوة العسكرية وحدها، بل على القاعدة الصلبة من التماسك الاجتماعي التي وفرتها شبكات التجارة، مما جعل من السودان الغربي نموذجاً فريداً للتعايش السلمي في العصر الوسيط.

التوصيات

بناءً على النتائج السابقة، توصي الدراسة بما يلي:

1. ضرورة التوسع في الدراسات البينية التي تزاوج بين التاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا لفهم تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء.
2. إعادة قراءة المخطوطات المحلية والسودانية برؤية سوسيولوجية تركز على "تاريخ المهمشين" والعلاقات اليومية بدلاً من التركيز التقليدي على تاريخ السلاطين والحروب.
3. استلهام نموذج "التكامل الاقتصادي التاريخي" في السودان الغربي لتطوير مشاريع الاندماج الإقليمي المعاصر في القارة الأفريقية.

المراجع

أولا المراجع العربية

 Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

1. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله. (2002). رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (تحقيق طلال حرب). دار الكتب العلمية.
2. ابن حوقل، محمد بن علي. (1992). صورة الأرض. منشورات دار مكتبة الحياة.
3. الإدريسي، محمد بن محمد. (2002). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. مكتبة الثقافة الدينية.
4. البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز. (1992). المسالك والممالك (تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري). الدار العربية للكتاب.
5. السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله. (2010). تاريخ السودان (تحقيق هـ. أ. ل. هوداس). دار الكتاب الإسلامي.
6. العمري، ابن فضل الله. (2010). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (تحقيق كامل سلمان الجبوري). دار الكتب العلمية.
7. القاسمي، عبد القادر. (2005). التواصل الإسلامي في غرب إفريقيا. دار الغرب الإسلامي.
8. مؤنس، حسين. (1997). أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء للإعلام العربي.

ثانياً المراجع الأجنبية

1. Battutah, I .(2002) .The Travels of Ibn Battutah (H. A. R. Gibb, Trans.). Goodword Books .
2. Bovill, E. W .(1995) .The Golden Trade of the Moors: West African Kingdoms in the Fourteenth Century .Markus Wiener Publishers.
3. Gomez, M. A .(2018) .African Dominion: A New History of Empire in Early and Medieval West Africa .Princeton University Press.
4. Insoll, T .(2003) .The Archaeology of Islam in Sub-Saharan Africa . Cambridge University Press.
5. Levtzion, N .(1973) .Ancient Ghana and Mali .Methuen.
6. Levtzion, N & ,.Hopkins, J. F. P. (Eds.) .(2000) .Corpus of Early Arabic Sources for West African History .Marcus Wiener Publishers.
7. Lydon, G .(2009) .On Trans-Saharan Trails: Islamic Law, Trade Networks, and Social Network in Nineteenth-Century Western Africa .Cambridge University Press.
8. McDougall, E. A .(1990) .Salts of the Western Sahara: Myths, Mysteries, and Historical Methods .The International Journal of African Historical Studies , .257-231 ,(2)23
9. Wright, J .(2007) .The Trans-Saharan Slave Trade .Routledge.

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of **AJHAS** and/or the editor(s). **AJHAS** and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.

 Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).